التفسير العلمي: تطوره ودوافعه وضوابطه

ثناء الله حسين

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وبعد.

التفسير قبل القرن العشرين:

كان التفسير قبل القرن العشرين على أنماط مختلفة: مبسوط ووسيط وتفسير مفردات. فالتفسير المبسوط كان معنيا بكل ما يتعلق بالقرآن الكريم من جهة القراءات وأسباب النزول والربط ومعاني الكلمات ... إلخ. هذا بالإضافة إلى اهتمام كل واحد من المفسرين على هذا النمط بالفن الذي برز فيه أكثر مما سواه من الفنون الأخرى، فالفقهاء مثلاً كانوا يعنون بإبراز الأحكام الفقهية أكثر من عنايتهم بأنواع العلوم الأخرى، والأديب البليغ كان يعنى بإبراز بلاغة القرآن ووجوه إعجازه أكثر من عنايته بباقي العلوم الأخرى وهلم جراً.

والتفسير الوسيط أيضاً كان المفسرون يطرقون فيه أكثر الموضوعات التي عرضت لها تلك الموسوعات، ولكنهم لم يسهبوا فيها كما أسهب مؤلفو الموسوعات، ومن هذا النوع **تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل** للإمام النسفي. وأما النوع الثالث فعبارة عن مختصرات تفيد لقارئها المعنى القرآني في يسر وسهولة مع الاعتماد على أرجح الأقوال وإعراب ما يحتاج إليه والتنبيه على القراءات بوجه لطيف وتعبير وجيز، وخير مثال لهذا النوع **تفسير الجلالين** للإمامين المحلي والسيوطي معا[1].

١- انظر الشيخ مصطفى محمد الحديدي الطير، "اتجاه التفسير في العصر الحديث"، المنشور بسلسلة **البحوث الإسلامية**، السنة الرابعة، العدد: ٨، ربيع الأول، ١٣٩٥هـ، ص ٩ -١٣.

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

التفسير في عصر النهضة:

وأما في عصر النهضة العلمية الحديثة فقد تغير الحال واتجهت أنظار العلماء الذين لهم عناية بدراسة التفسير إلى محاولة التحرر من نطاق هذا الركود، والتخلص من نطاق هذا الجمود، فنظروا في كتاب الله نظرة أثرت في الاتجاه التفسيري للقرآن الكريم تأثيراً لا يسع أحداً إنكاره[٢] وذلك هو العمل على التخلص من الخرافات والإسرائيليات إلى جانب التقليل من الاستطرادات النحوية والبلاغية والاقتصار على الضروري منها، لفهم الآية حتى لا يضيع معناها في أعطاف تلك المصطلحات الفنية، ولكي يتسنّى لكل قارئ أن ينتفع بالتفسير مهما كانت ثقافته. وقد امتازت هذه النهضة بإسلوب أدبي سائغ هنيء يستدعي متابعة القراءة، وينحي عن القارئ الملل، ويعنى بالتوجه إلى المثل العليا في العقائد والأخلاق والعبادات والنواحي الاجتماعية المختلفة. كما أن هناك آثار أخرى ظهرت في الاتجاه التفسيري في هذا العصر، نشأت عن عوامل أخرى مختلفة أهمها: التوسع العلمي والتأثر بالمذهب والعقيدة. وعلى ضوء ما تقدم نستطيع أن نجمل اتجاهات التفسير في العصر الحديث في:

١ـ الاتجاه المذهبي. ٢ـ الاتجاه الأدبي. ٣ـ الاتجاه الاجتماعي. ٤ـ الاتجاه العلمي.

أما الاتجاه العلمي للتفسير فسوف نتطرق إليها بالتفصيل في السطور القادمة، وبالله التوفيق.

معنى التفسير العلمي:

أولاً: التفسير لغةً واصطلاحاً:

التفسير في اللغة مصدر فسّر ـ من مادة "فسر" التي تدل على الكشف والبيان ـ يقال: فسّر الشيء إذا بيّنه، قال الآلوسي: "التفسير تفعيل من الفسر وهو لغة البيان والكشف"[٣] وقال صاحب **القاموس**: "التفسير الإبانة وكشف المغطى ...، والفعل فَسَرَ كضرب ونصر"[٤]. وقال ابن منظور: الفسر: "البيان وفسّره أبانه والتفسير مثله، وقال ابن الأعرابي: الفسر كشف المغطى، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل، والتأويل ردّ أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر"[٥]، وقال الشيخ الزرقاني: "فالتفسير في اللغة الإيضاح والتبيين، ومنه قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ

٢- محمد حسين الذهبي، **التفسير والمفسرون**، إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، كراتشي، ج ٢، ص ٤٩٥.

٣- الآلوسي، **روح المعاني**، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، ج ١، ص ٤.

٤- الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، ج ٢، ص ١١.

٥- ابن منظور، **لسان العرب**، طبعة دار المعارف الجديدة والمحققة، القاهرة، ج ٥، ص ٣٤١٢.

تَفْسِيرًا ﴾"[٦]. ومن هنا نعلم أن التفسير في الأصل ليس خاصاً بالقرآن ولكنه شاع واشتهر فيه، فإذا أطلق يكون المراد منه المعنى الذي يقصده القرآن[٧].

والتفسير في الاصطلاح: "علم يبحث فيه عن القرآن من حيث دلالته على مراد الله عزوجل بقدر الطاقة البشرية"[٨]. وقال ابن جزي: "معنى التفسير شرح القرآن وبيان معناه والإفصاح يقتضيه نصه أو إشارته أو فحواه"[٩] وعرّفه أبو حيان بأنه: "علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن الكريم ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وغير ذلك كمعرفة النسخ وأسباب النزول وما به توضيح المقام"[١٠]. قال الزركشي: "التفسير علم يفهم به كتاب الله المنزّل على نبيّه صلى الله عليه وسلم وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه"[١١].

واختلاف العلماء في التفريق بين التفسير والتأويل موضوع طويل ولسنا بسبيل بيان تلك الاختلافات لخروجها عن بحثنا نوعاً ما، ولكن يمكن تلخيصها بكلام ابن جزي: "وإن قيل: ما الفرق بين التفسير والتأويل؟ فالجواب: أن في ذلك ثلاثة أقوال: الأول: أنهما بمعنى واحد. والثاني: أن التفسير للفظ والتأويل للمعنى. والثالث: أن التفسير هو الشرح، والتأويل: هو حمل الكلام على معنى غير المعنى الذي يقتضيه الظاهر بموجب اقتضى أن يحمل على ذلك ويخرج عن ظاهره"[١٢].

ثانياً: العلم لغةً واصطلاحاً:

العلم في اللغة: مصدر يرادف الفهم والمعرفة ويرادف الجزم أيضاً في رأي[١٣] وقال صاحب **مختار الصحاح**: "علم الشيء ـ بالكسر ـ يعلمه علماً: عرفه"[١٤] والعلم نقيض الجهل[١٥].

٦- الزرقاني، **مناهل العرفان**، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٤م، ج ١، ص ٤٧٠، والآية من سورة الفرقان، ٣٣.

٧- الشيخ محمد الزفزاف، **التعريف بالقرآن والحديث**، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٤هـ، ص ١٥.

٨- الزرقاني، **مناهل العرفان**، ج ١، ص ٤٧.

٩- الشيخ محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، **كتاب التسهيل لعلوم التنزيل**، المقدمة الأولى، طبعة دار الفكر، ج١، ص ٦.

١٠- محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، **البحر المحيط**، دار الفكر، ط ٢، ١٩٨٣م، ج ١،ص ١٣-١٤.

١١- الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ج ١، ص ١٢.

١٢- ابن جزي، **التسهيل لعلوم التنزيل**، ج ١، ص ٧.

١٣- الزرقاني، **مناهل العرفان**، ج ١، ص ٥.

١٤- أبوبكر الرازي، **مختار الصحاح**، مكتبة لبنان، ١٩٨٧م، ص ١٨٩.

١٥- ابن منظور، **لسان العرب**، مادة "علم"، ج ٤، ص ٣٠٨٣.

أما ما يتعلق بتعريف العلم اصطلاحاً فهو كلمة شاملة تفيد "الاعتقاد الجازم المطابق للواقع" ولذلك فهي تشمل جميع المعارف البشرية دون الاقتصار على واحد منها ولكن تجاذبت هذا الاصطلاح أيدي العلماء فكل يطلقه على ما تدور أبحاثه عليه. فقال الحكماء: هو صورة الشيء الحاصلة في العقل. وقال المتكلمون: هو صفة يتجلى بها الأمر لمن قامت به. وزعم الماديون: أن العلم ليس إلا خصوص اليقينيات التي تستند إلى الحس وحده. وقال علماء التدوين أنه: المسائل المضبوطة بجهة واحدة والغالب أن تكون المسائل نظرية كلية، وقد تكون ضرورية وقد تكون جزئية(١٦).

والعلم في لسان الشرع العام: هو معرفة الله تعالى وآياته وأفعاله في عباده وخلقه: "فإنه سبحانه أخبر أنه خلق الخلق ووضع بيته الحرام والهدي والقلائد ليعلم عباده أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير، فقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾(١٧).

هذه هي بعض اصطلاحات العلماء في لفظة علم، فهل هي المرادة في قولنا: التفسير العلمي للقرآن؟. نظرة واحدة في كتب التفسير العلمي تفيد القارئ أن ليست واحدة من هذه الاصطلاحات هي المقصودة بالعلم في هذا المقام إذاً فما المقصود بالعلم هنا؟ في الإجابة عن هذا السؤال يقول الأستاذ محمد إسماعيل إبراهيم: لقد صارت كلمة العلم من تطور الزمن ذات مدلولين، فقديماً كان مدلولها: العلم القائم على العلوم الدينية وما يتفرع عنها.

أما مدلول العلم حديثا: فإنه يختلف عن المعنى القديم المشار إليه سابقا، إذ ظهر جماعة من الناس تقول عن عصرنا الحاضر أنه عصر العلم ويقصدون بذلك أن العلم بمفهوم عصرنا هو العلم الطبيعي القائم على دراسة ما في الكون من مواد وعناصر وكائنات لها خصائصها الذاتية ونواميسها التي تحكمها من كيمياء وطبيعة وميكانيكا، وغير ذلك من علوم الطب والرياضة والفلك وما يتضمنه ذلك من حقائق كونية وأن العمل في إطار هذا المفهوم للعلم هو تطبيق العلم عمليا باستعمال الأجهزة والأدوات والوسائل الأخرى الحديثة من مختبرات ومراصد وتجارب واستنباطات منطقية وغير ذلك(١٨).

١٦- الزرقاني، **مناهل العرفان**، ج ١، ص ٥ ـ ٦.

١٧- سورة الطلاق، الآية: ١٢.

١٨- محمد إسماعيل إبراهيم، **القرآن وإعجازه العلمي**، دار الفكر العربي، ص ٤٣-٤٤.

هذا هو المقصود بالعلم في هذا المقام، وهذا ما تناولوه بالتفسير العلمي للقرآن في هذه الأيام، ولا مشاحة في الاصطلاح.

قال ابن عاشور: "إن العلم نوعان: علم اصطلاحي وعلم حقيقي، فأما الاصطلاحي فهو ما تواضع الناس في عصر من الأعصار على أن صاحبه يعد في وصف العلماء، وهذا قد يتغير بتغير العصور باختلاف الأمم والأقطار ... وأما العلم الحقيقي فهو معرفة ما بمعرفته كمال الإنسان وما به يبلغ إلى ذروة المعارف وإدراك الحقائق النافعة عاجلا وآجلا، وكلا العلمين كمال إنساني ... وبين العلمين عموم وخصوص..."(١٩).

وبالنظر إلى العلوم التي تناولها المفسرون تحت عنوان التفسير العلمي نجد أنها علوم تجمعها التجربة والتجارب فهي علوم ما ثلة للأعيان وخاضعة في غالبها للتجربة. فالمقصود بالعلم في هذا المقام العلم التجريبي، وهذا ما نقصده في هذه الرسالة وعليه فيعرّف التفسير العلمي بما يلي:

ثالثاً: تعريف التفسير العلمي:

قال الشيخ الذهبي: "نريد بالتفسير العلمي التفسير الذي يحكم الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن ويجتهد في استخراج العلوم والآراء الفلسفية منها"(٢٠). ويقول الدكتور موسى شاهين: "يقصد بالتفسير العلمي الذي يحكم الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن ويحاول استخراج العلوم المختلفة من آياته"(٢١) ويقول الأستاذ محمد الصباغ عنه: "إنه تحكيم مصطلحات العلوم في فهم الآية والربط بين الآيات الكريمات ومكتشفات العلوم التجريبية والفلكية والفلسفية"(٢٢) بعضهم يقولون: هو التفسير الذي يتوخى أصحابه إخضاع عبارات القرآن للنظريات والاصطلاحات العلمية وبذل أقصى الجهد في استخراج مسائل العلوم والآراء الفلسفية منها(٢٣).

١٩- محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، الدار التونسية، ج ١، ص ١٢٦، (محمد بن الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور ولد بتونس سنة ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م في أسرة علمية، تخرج بجامعة الزيتونة وحفظ القرآن في صغره، وقد توفي ١٣ رجب ١٣٩٢هـ / أغسطس ١٩٧٣م. خير الدين تونسي، **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، مطبعة دولة التونسية، انظر ترجمته.

٢٠- الذهبي، **التفسير والمفسرون**، ج ٢، ص ٤٧٤.

٢١- نقلا عن فهد الرومي، **اتجاهات التفسير**، مكتبة الأنجلو، الطبعة الثانية، ١٩٦٥م، ج ٢، ص ٥٤٨.

٢٢- محمد الصباغ، **لمحات في علوم القرآن**، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٤هـ، ص ٢٠٣.

٢٣- عبد المجيد المحتسب، **اتجاهات التفسير في العصر الراهن**، بيروت، لبنان، ص ٢٤٧.

والملاحظ على جميع التعريفات السابقة أنها تصف هذا اللون من التفسير بأنه "تحكيم" أو "إخضاع" للمصطلحات العلمية في عبارة القرآن. وقد انتقده عبد الله الأهدل في رسالته **التفسير العلمي للقرآن الكريم** (٢٤) ردًا على تعريف الذهبي والخولي بما يلي:

"فقولهما: يحكم الاصطلاحات العلمية في عبارة القرآن غير دقيق لأنه ما كل تفسير علمي كذلك، وتعبيرهما هذا "يحكم" يوحي بأن الآية المراد تفسيرها لها معنى آخر غير المعنى العلمي الذي يراد منها أن تدل عليه. وهذا وإن صدق على بعض التفسير المتحمل والشطحات العلمية فإنه لا ينطبق على البعض الآخر"(٢٥).

قال الشيخ الزنداني: "هو الكشف عن معاني الآية أو الحديث في ضوء ما ترجحت صحته من نظريات العلوم الكونية"(٢٦). وقال الدكتور صلاح الخالدي: "هو النظر في الآيات ذات المضامين العلمية من الزاوية العلمية وتفسيرها تفسيراً علميا وذلك بالاستعانة بالعلوم والمعارف والمكتشفات الجديدة في توسيع مدلولها وتقديم معناها"(٢٧). فالمراد من التفسير العلمي: اجتهاد المفسر في كشف الصلة بين آيات القرآن المتعلقة بالكون وما فيه ومكتشفات العلم التجريبي على وجه يظهر به إعجاز القرآن ليدل على مصدره الإلهي وصلاحيته لكل زمان ومكان.

معنى الإعجاز:

قال صاحب **اللسان**: "العجز الضعف ... والتعجيز: التثبيط، ذلك إذا نسبته إلى العجز، وقال الأزهري: ومعنى الإعجاز الفوت والسبق، يقال: أعجزني فلان أي فاتني، والمعجزة واحدة معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام"(٢٨).

والمعجزة اصطلاحاً: الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدي السالم من المعارضة، وتسمى معجزة: لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها، لأنها أمر خارق للعادة خارج عن حدود الأسباب المعروفة(٢٩)

٢٤- نقلاً عن فهد الرومي، **اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر**، ج ٢، ص ٥٤٩.

٢٥- المرجع السابق، ج ٢، ص ٥٤٩.

٢٦- عبد المجيد الزنداني، **المعجزة العلمية في القرآن والسنة**، مطبعة دار الفكر العربي، ١٩٨٧م، ص ٢٥.

٢٧- صلاح عبد الفتاح الخالدي، **البيان في إعجاز القرآن**، دار عمار، عمان، ص ٢٦٦.

٢٨- ابن منظور، **لسان العرب**، مادة عجز، ج ٤، ص ٢٨١٧.

٢٩- انظر معنى ذلك في **تفسير القرطبي**، دار الفكر، بيروت، لبنان، ج ١، ص ٦٩ وما بعدها، وحسن ضياء عتر، **المعجزة الخالدة**، دار النصر، سوريا، ١٩٧٥م، ص ١٩.

قال العلامة ابن حجر: "وسميت معجزة لعجز من يقع عندهم ذلك عن معارضتها، والهاء فيها للمبالغة"(٣٠).

تعريف الإعجاز العلمي:

قال الشيخ عبد المجيد الزنداني حيث يقول: "هو إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية بحقيقة أثبتها العلم التجريبي وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم"(٣١). وقال الأستاذ الدكتور علي محمد نصر: "هو سبق القرآن الكريم العلماء فيما وصلوا إليه من علوم كونية بإشاراته إلى ما وقفوا في نهاية بحوثهم عنده خاضعين لعظمته معترفين بسبقه وتبريزه"(٣٢).

وعرّفوه في مقدمة التوصيات الصادرة عن مؤتمر الإعجاز العلمي في القرآن والسنة الذي عقد بمدينة إسلام آباد عام ١٩٨٧م بأنه: تأكيد الكشوف العلمية الحديثة الثابتة والمستقرة للحقائق الواردة في القرآن الكريم والسنة المطهرة بأدلة تفيد القطع واليقين باتفاق المتخصصين. وتهدف دراسته وإجراء البحوث فيه إلى إثبات صدق الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من الوحي بالنسبة لغير المؤمنين، وتزيد الإيمان وتقوي اليقين في قلوب المؤمنين وتكشف لهم من عجائبه وأسراره وتعينهم على فهم حكمه وتدبر مراميه(٣٣).

فالإعجاز العلمي إذا: هو إظهار صدق الرسول صلى الله عليه وسلم بما حمله الوحي من علم إلهي ثبت تحققه ويعجز البشر عن نسبته إلى محمد صلى الله عليه وسلم أو إلى أي مصدر بشري في عصره. ولقد شاع مصطلح الإعجاز العلمي في عصرنا الحاضر للدلالة على أوجه إعجاز القرآن التي كشفت عنها العلوم الكونية والطبيعية فقط. وفي تقديري أن مجالات الإعجاز العلمي أوسع مما هو شائع الآن، وسأسوق لذلك شواهد من كلام العلماء في هذا الميدان، أبدأها بكلام الشيخ الزنداني. قال: "إن كل موضوع تحدث عنه القرآن في أيّ مجال من مجالات العلم التي ظهرت حقيقتها والتي لا يمكن نسبة خبرها الذي جاء به الوحي إلا إلى الله عزوجل هو ميدان من ميادين أبحات الإعجاز العلمي، ولكن هذا

٣٠- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ج ٦، ص ٨٩.

٣١- الشيخ الزنداني، **المعجزة العلمية في القرآن والسنة**، ص ١٤.

٣٢- علي محمد نصر، ملخّص بحث الإعجاز العلمي في القرآن الكريم المسمى بـ: "القول القويم في الإعجاز العلمي للقرآن الكريم"، مؤتمر الإعجاز العلمي، إسلام آباد، ص ٤٧.

٣٣- رابطة العالم الإسلامي، **تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة**، ص ٧٣.

المصطلح يقصد به الإعجاز العلمي الذي كشفت عنه العلوم الحديثة"(٣٤).

وقال أيضاً: "إن معجزة القرآن العلمية تظهر لأهل العلم في كل مجال من مجالاته، فهي ظاهرة في نظمه وفي إخباره عن الأولين وفي إنبائه بحوادث المستقبل وحكم التشريع وغيرها"(٣٥).

قال الزمخشري عند تفسير قوله تعالى: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾(٣٦): "... وهذه الآية من الآيات البيّنة الشاهدة على صحة النبوة وأن القرآن من عند الله عزوجل لأنها إنباء عن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله"(٣٧).

ويقول القاضي عياض: "الوجه الثالث من الإعجاز ما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات ولم يقع فوجد كما ورد على الوجه الذي أخبر"، وضرب لذلك أمثلة بفتح مكة وانتصار الروم على الفرس ودخول الناس في الإسلام أفواجاً(٣٨). وأقوال العلماء في هذا كثيرة اقتصرنا على ما قلناه للاختصار فقط.

وجملة القول أن المؤيّدين للتفسير العلمي والمعارضين له أيضاً كلهم وبلا استثناء يقرون ويعترفون أن القرآن الكريم لم يصادم ولن يصادم حقيقة علمية. وقد يحسب أحد أن السلامة من مصادمة الحقائق العلمية أمر هيّن.

وما على المتكلم إلا أن يتجنب الخوض في المجالات العلمية وأسرار الكون وبذلك يظفر بالسلامة. والأمر حق لو أن القرآن سلك هذا المسلك، ولكنه قد أنزل قبل أربعة عشر قرنا وهو يعرض لكثير من المظاهر الكونية لخلق السموات والأرض والإنسان وإنزال الأمطار والتحدث عن النجوم والكواكب والشهب وعن أطوار الجنين والنبات والبحار والجبال... وغير ذلك، ومعارف العلوم متعددة، ومع هذا كله لم يسقط العلم على مرّ الأيام كلمة واحدة من كلماته ولم يصادم جزئية من جزئياته مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾(٣٩).

٣٤- الزنداني، **المعجزة العلمية**، ص ٣٤.

٣٥- المرجع السابق، ص ٢٧.

٣٦- سورة الروم، الآية: ٤.

٣٧- الإمام جار الله الزمخشري، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، بيروت، لبنان، ج ٣، ص ٤٦٧. هو جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ولد عام ٤٦٧هـ في زمخشر وهي قرية من قرى خوارزم، مقدمة **الفائق في غريب الحديث** للزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص ٦.

٣٨- القاضي عياض، **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، دار الفكر، ١٩٨٨م، ج ١، ص ٢٦٨.

٣٩- سورة النساء، الآية: ٨٢.

الفرق بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي:

إن هناك فرقاً بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي من جهة، وتوافقاً واتصالاً من جهة أخرى.

أما الفرق فهو أن التفسير العلمي كما ذكرنا: هو النظر في الآيات ذات المضامين العلمية من الزاوية العلمية وتفسيرها تفسيراً علمياً وذلك بالاستعانة بالعلوم والمعارف والمكتشفات الجديدة في توسيع مدلولها وتقديم معناها.

وأما الإعجاز العلمي: فهو أن نعتبر تلك المضامين والأبعاد والإشارات والحقائق العلمية لتلك الآيات وجها من وجوه الإعجاز القرآني و نسميه الإعجاز العلمي ونضيفه إلى وجوه الإعجاز الأخرى.

وأما العلاقة والاتصال فهي: أن للتفسير العلمي أهدافاً يرمي إليها وهي في جملتها بيان يرمي إلى الإعجاز، منها:

١- إدراك وجوه جديدة للإعجاز في القرآن الكريم من ناحية ما يحويه أو يرمز إليه من علوم الكون والاجتماع.

٢- الحثّ على الانتفاع بقوى الكون ومواهبه.

٣- دفع مزاعم القائلين بأن هناك عداوة بين العلم والدين.

٤- استمالة غير المسلمين إلى الإسلام من هذا الطريق العلمي الذي يخضعون له دون سواه في هذه الأيام.

٥- امتلاء النفس إيماناً بعظمة الله وقدرته حينما يقف الإنسان في تفسير كلام الله عزوجل على خواص الأشياء ودقائق المخلوقات حسبما تصورها علوم الكون(٤٠).

نشأة التفسير العلمي وتطوره:

لا نستطيع أن نحدد من بدأ التفسير العلمي، ولكن السلف الصالح فقهوا أضواء القرآن الكريم بقواعدها وبعض حقائقها العلمية، وليس أدل على ذلك من قول سعيد بن جبير في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ...﴾(٤١). قال: بل كانت السماء والأرض ملتزقتين فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض كان ذلك فتقها الذي ذكر الله تعالى في كتابه(٤٢) وما

٤٠- الزرقاني، **مناهل العرفان**، ج ١، ص ٥٦٧.

٤١- سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

٤٢- **تفسير ابن كثير**، دار المعرفة ببيروت، ١٩٦٩م، ج ٣، ص ١٧٧.

ورد في **تفسير ابن كثير** لابن جريج عند قوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ ...﴾[٤٣] عن سلفنا الصالح. قال: قال ابن عباس: كان القمر يضيء كما تضيء الشمس والقمر آية الليل والشمس آية النهار فمحونا آية الليل: السواد الذي في القمر[٤٤]، وعن الصحابي الجليل ابن مسعود أنه قال: "من أراد العلم فعليه بالقرآن فإن فيه خير الأولين والآخرين"[٤٥].

وهذه التفسيرات والأقوال تدل على أن للتفسير العلمي آثاراً منذ لحظات بزوغه الأول ونحن وإن كنا لا نعرف بدايته باليوم أو السنة إلا أن العلماء اتفقوا تقريباً على أن القرن الخامس الهجري هو بداية نشأة هذا اللون من التفسير.

ففي ذلك العصر نجد ـ مثلاً ـ ابن سراقة[٤٦] يرى أن من بعض وجوه إعجاز القرآن: "ما ذكره الله تعالى فيه من أعداد الحساب والجمع والقسمة والضرب والموافقة والتأليف والمناسبة والتصنيف والمضاعفة ليعلم بذلك أهل العلم بالحساب أنه صلى الله عليه وسلم صادق في قوله وأن القرآن الكريم ليس من عنده"[٤٧].

هذا من جهة، ومن أخرى فإنه يظهر أن الإمام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هجرية، كان إلى عهده أكثر من استوفى القول في ذلك وأهم من أيّده وعمل على ترويجه[٤٨].

والإمام الغزالي[٤٩] له في موضوع العلوم التي اشتمل عليها القرآن الكريم بحث طويل، مفاده عند العلماء والمحققين: أن الغزالي أول من يعرض لفكرة احتواء القرآن الكريم للعلوم كلها، وأن هذه الفكرة كانت سبباً وأساساً للتفسير العلمي لمن جاء بعده من المفسرين، كالرازي في القديم وطنطاوي

٤٣- سورة الإسراء، الآية: ١٢.

٤٤- **تفسير ابن كثير**، ج ٣، ص ٢٧.

٤٥- السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٧٣م، ج ٢، ص ١٦.

٤٦- هو أبو الحسن بن يحيى بن سراقة العامري البصري الشافعي ـ كان حيا في سنة ٤٠٠ هجرية ـ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج ١٧، ص ٢٨١.

٤٧- نقلاً عن **الإتقان**، ج ٣، ص ٣٠٢.

٤٨- انظر: نعيم الحمصي، **فكرة إعجاز القرآن**، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م، ص ٩١، والذهبي، **التفسير والمفسرون**، ج ٢، ص ٤٧٤.

٤٩- هو الإمام حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الطوسي الشافعي الغزالي، صاحب التصانيف والذكاء المفرط، توفي سنة خمس وخمسمائة للهجرة، الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج ١٩، ص ٣٢٢.

جوهري في الحديث[٥٠].

ولا يعني هذا أن الغزالي كان وحيداً في تلك الفكرة في ذلك الزمان .... بل وجد له من أقرانه وعلماء عصره مؤيّدون وأنصار، منهم الراغب الأصفهاني المتوفى ٥٠٢هـ يقول: "ومن معجزة هذا الكتاب أنه مع قلة حجمه متضمن للمعنى الجم بحيث تقصر الألباب البشرية عن إحصائه والآلات الدنيوية عن استيفائه"[٥١] ومنهم أبوبكر ابن العربي المتوفى سنة ٥٤٣هـ[٥٢].

وإذا انتقلنا إلى القرن السابع فإننا نجد من علماء هذا القرن من تبنى فكرة الراغب وأبي بكر ابن العربي؛ بل وجدنا في هذا القرن أول محاولة عملية لتطبيق فكرة التفسير العلمي على كتاب الله عزّوجل على يد الإمام فخر الدين الرازي المتوفى ٦٠٦هـ[٥٣] في تفسيره **مفاتيح الغيب**، حيث تكلم عن الأفلاك والأبراج وعن السماء والأرض والحيوان والنبات بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة. ويبدو أن الرازي في منهجه هذا قد أثار كثيراً من العلماء في زمانه وبعد وفاته، فوصل ببعضهم الحد إلى أن ينفي التفسير في كتابه فقال: "لقد قال الفخر الرازي كل شيء في تفسيره إلا التفسير"[٥٤].

وفي القرن الثامن نجد أيضاً تأييدا لفكرة التفسير العلمي عند عدد من العلماء منهم: الإمام بدر الدين الزركشي[٥٥] في كتابه **البرهان**، والإمام نظام الدين القمي النيسابوري المعروف بالنظام الأعرج، صاحب تفسير **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، المتوفى سنة ٧٢٨هـ، والإمام ابن قيم الجوزية المتوفى ٧٥١هـ في كتابه **مفتاح دار السعادة** والكتاب مليء بالتفسيرات العلمية، بل وجدنا في هذا القرن

٥٠- انظر: نعيم الحمصي، **فكرة إعجاز القرآن**، ص ٩٢، ومحمد فريد وجدي، **دائرة المعارف الإسلامية**، دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ١٩٩٤م، ج ٥، ص ٢٥٨.

٥١- نقلا عن **الإتقان**، ج ٢، ص ١٦٣.

٥٢- انظر: المرجع السابق، ج ٢، ص ١٦٤.

٥٣- هو الإمام أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي القريشي، الطبرستاني الأصل، الرازي المولد، الملقّب بفخر الدين، المعروف بابن الخطيب أو خطيب الري، ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، مكتبة النهضة المصرية، ج ١، ص ١٠١.

٥٤- أبو حيان، **البحر المحيط**، ج ١، ص ٣٤١، عند تفسيره لقوله تعالى: مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ... سورة البقرة، الآية: ١٠٦.

٥٥- أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي الشافعي المصري، لقب بالمصري لأنها دار مولده وحياته وموته، ولقب بتركي لأصله وبالزركشي لأنه تعلم في صغره صنعة زركش، ولد سنة ٧٤٥هـ بمصر وتوفي بها سنة ٧٩٦هـ. مقدمة الدكتورة صفية أحمد خليفة، لتحقيق: كتاب **سلاسل الذهب**، الهيئة المصرية العامة للكتب، ص ٧.

الثامن من يتصل رأيه بالتفسير العلمي اتصالاً سلبياً كالإمام الشاطبي صاحب **الموافقات** المتوفى سنة ٧٩٠هـ حيث ينكر التفسير العلمي بل يعتبر بحق زعيم المعارضين لهذه الفكرة منذ النشأة الأولى(٥٦).

وأما القرن التاسع حتى إلى القرن الثالث عشر فنجد استمراراً لفكرة التفسير العلمي كما هو في **الإتقان** للإمام السيوطي المتوفى ٩١١هـ(٥٧).

وفي القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر قويت النزعة العلمية ونما الاتجاه العلمي في التفسير. ومن أشهر الكتب التي ظهرت فيها نزعة التفسير العلمي للآيات القرآنية في القرن الثالث عشر كتاب **كشف الأسرار النورانية، فيما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية** للشيخ الفاضل والطبيب الماهر محمد بن أحمد الإسكندري يقع هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء يضمها مجلد واحد مطبوع بالمطبعة الوهبية بمصر بتاريخ ٥/ ٢/ ١٢٩٧هـ. وكتاب **تبيان الأسرار الربانية في النباتات والمعادن والخواص الحيوانية** لنفس المؤلف، وقد طبع هذا الكتاب في سوريا سنة ١٣٠٠هـ. ورسالة عبد الله فكري باشا في مقارنة بعض مباحث الهيئة بالوارد في النصوص الشرعية، وقد طبعت بالقاهرة سنة ١٣١٥هـ. ورسالة في تطبيق الهيئة الجديدة الآثار على بعض الآيات الشريفة وبعض الأخبار، لإبراهيم فصيح الشهير بحيدري زادة البغدادي الذي صار عضواً من أعضاء مجلس المعارف في الآستانة، وكتاب **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد** لعبد الرحمن الكواكبي(٥٨).

القرن العشرون الميلادي والتفسير العلمي:

من أوضح سمات هذا العصر (القرن العشرين) أنه عصر التقدم العلمي والرقي الحضاري ... والمخترعات تكاد لا تخفى على صغير ولا كبير. ولما كان هذا التقدم العلمي من نصيب البلاد الكافرة، وانحطاط في بلاد المسلمين، وفتح الكثير من المثقفين والدراسين عيونهم على الواقع بهرهم علم تلك البلاد وما وصلوا فيه من تفوق ظاهر في العلوم وتقدم بارز في الفنون فظن بعضهم وللأسف أن سبب ذلك التقدم هو تخلي الكفار عن دينهم جماعة مما جعل بعض المتأثرين منهم ينادي تصريحاً أو تلويحاً بترك

٥٦- انظر: الإمام الشاطبي، **الموافقات**، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٥م، ج ٢، ص ٦٩-٨٠.

٥٧- هو الإمام الحافظ أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن كمال الدين أبي المناقب أبي بكر بن ناصر الدين بن محمد الشيخ همام الدين الهمام الخضيري الأسيوطي، ولد في مصر بعد المغرب ليلة الأحد مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمان مائة الموافق لـ: ٣/ ١٠/ ١٤٤٥ ميلادية. مقدمة **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، دار إحياء التراث العربي، ج١، ص ٧.

٥٨- الذهبي، **التفسير والمفسرون**، ج ٢، ص ٤٩٨.

الإسلام وهجر القرآن[٥٩] فتنبّه علماء المسلمين إلى هذا الصراع الدائر بين العلم والدين النصراني المنحرف، وإلى محاولة نقل أعداء الإسلام والقرآن هذه المعركة إلى بلاد المسلمين. فكتب التفسير العلمي والإعجاز العلمي في هذا القرن العشرين كثيرة جداً، ولسنا بسبيل الحديث عن هذه الكتب هنا. ومن أشهر من عرف بالاهتمام بهذا الجانب والتخصص فيه المفسر طنطاوي جوهري في تفسيره **الجواهر في تفسير القرآن الكريم**، والمرحوم الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا في **سنن الله الكونية**، والأستاذ محمد محمود إبراهيم في كتابه **إعجاز القرآن في علم طبقات الأرض**، والأستاذ محمد أحمد الغمراوي في كتابه **الإسلام وعصر العلم**، والأستاذ عبد المجيد الزنداني في محاضراته ومشاركاته في المؤتمرات والأبحاث المختلفة.

ومما يدل على اهتمام المعاصرين بالتفسير والإعجاز العلمي في القرآن الكريم في هذا الزمان هو: تشكيل هيئة خاصة به، وهي هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في المملكة العربية السعودية التابعة للمجلس العالمي الأعلى للمساجد برئاسة الشيخ الفاضل عبد المجيد الزنداني.

دوافع التفسير العلمي في العصر الحديث:

وقد تطرقنا إلى الحديث عن شيء من هذه الدوافع في طوايا حديثنا السابق، والآن نقدم هذه الدوافع بشيء من التفصيل، وهي بالإجمال على ثلاثة أقسام:

١- عوامل خاصة بالقرآن.

٢- عوامل لها تعلق بعوامل القرآن و دوافعه.

٣- عوامل خارجة عن ذات القرآن ولكنها لا تخرج أبداً عن كونها أهدافاً ومرامي للتفسير العلمي، من بيان إعجاز القرآن الكريم وغيره.

هناك عامل رابع وهو: تخلف الشعوب الإسلامية عن ركب الحضارة الأوروبية.

وقد كان من جهل كثير من المسلمين لتعاليم الإسلام أن نشأت الفكرة القائلة بأن المسلمين لا يستطيعون أن يسايروا الرقي الذي نراه في سائر أنحاء العالم ما لم يتقبلوا القواعد الاجتماعية والاقتصادية التي قبلها الغرب، بل وظن البعض من المسلمين أن سبب التقدم في الغرب هو تخلي الكفار عن دينهم، فهتف جماعة من المسلمين المتأخرين بالغرب بترك الإسلام وهجر القرآن. فتنبّه العلماء إلى هذا الخطر العظيم فأخذوا يكتبون عن العلم والدين ويبيّنون للناس أن من أهم خصاص الدين أنه يقوم على

٥٩- انظر: صلاح الخالدي، **البيان في إعجاز القرآن**، ص ٢٥٩ (بتصرف).

العقل وينبني الإيمان على التفكير الصائب والنظر العميق[٦٠]. فكان من دوافع كثير من العلماء الذين اهتموا بالتفسير العلمي هو توجيه أنظار الأمة الإسلامية إلى كثير من الآيات الكونية والعمل على تنشيط المسلمين للاكتشافات الكونية بدافع من الحوافز الإيمانية. والآن نذكر الدوافع التي أجملناها قبل قليل.

أولاً: العوامل الخاصة بالقرآن الكريم:

١- نظرة القرآن الكريم للعلم، حيث حضّ على تحصيله إلى حد لم يبلغه كتاب قبله ناهيك بأنه حصر خشية الله تعالى الكاملة في أهله فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[٦١].

٢- الترابط الوثيق بين الآيات القرآنية والآيات الكونية: بهذا السبب حضّ القرآن الكريم على التفكر في الآيات القرآنية، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[٦٢] وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[٦٣].

٣- دعوة القرآن الكريم للنظر والتفكر في الآيات الكونية:

لقد زخرت الآيات القرآنية فضلاً عن الأحاديث النبوية بالدعوة إلى النظر والتدبّر في الكون للوقوف على أسراره العظيمة الدالة على بديع صنع الله تبارك وتعالى، ولو أردنا أن نستوعب ما في الآيات المشهورة من العجائب والدلالات الشاهدة لله عزوجل بالوحدانية والربوبية وحق الألوهية لعجزنا نحن وجميع الخلق أيضاً.

منها على سبيل المثال ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[٦٤] ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[٦٦].

٤- امتنان القرآن الكريم بتسخير الكون لنا ودعوته لنا للاستفادة منه ومما فيه:

وردت الآيات الكثيرة التي تحمل الأدلة الصريحة على تسخير الكون للإنسان وتدعوه ليقوم

٦٠- انظر: الشيخ محمد الغزالي، **دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين**، دار الأنصار، ص ٢٠١.

٦١- سورة فاطر، الآية: ٢٨.

٦٢- سورة محمد، الآية: ٢٤.

٦٣- سورة النساء، الآية: ٨٢.

٦٤- سورة الذاريات، الآية: ٢١.

٦٥- سورة الجاثية، الآية: ٣.

٦٦- سورة يوسف، الآية: ١٠٥.

بالانتفاع به وتعميره قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾(٦٧)، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾(٦٨). وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٦٩). إن هذه الآيات التي سقتها الآن وغيرها من قبل كانت من أهم دوافع التفسير العلمي قديماً وحديثاً.

٥- عرض القرآن الكريم لكثير من القضايا العلمية والحقائق الكونية، فمنها على سبيل المثال:

١- انفصال السموات والأرض عن بعض وأن الماء أصل الحياة: قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾(٧٠).

٢- أن اللبن يستخرج من بين الفرث والدم مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾(٧١).

٣- أن من تصعد في السماء أصابه ضيق شديد في صدره مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾(٧٢).

والأمثلة في ذلك كثيرة جداً تجدها في كتب ومؤلفات التفسير العلمي.

ولا شك أن تضمن القرآن الكريم لكثير من مثل هذه الآيات الكونية التي كانت غامضة في العصور المتقدمة وتبينت حقيقتها تحت ضوء العلم الحديث يعتبر في نظر أهل التفسير العلمي ومؤيّديهم من أهم دوافع التفسير العلمي ليتمكّنوا من بيان الإعجاز القرآني للناس.

٦- معجزة القرآن الكريم خالدة ومستمرة إلى يوم القيامة: قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ

٦٧- سورة لقمان، الآية: ٢٠.

٦٨- سورة النحل، الآية: ١٤.

٦٩- سورة الجاثية، الآية: ١٣.

٧٠- سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

٧١- سورة النحل، الآية: ٦٦.

٧٢- سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.

ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾(٧٣). قال ابن جزي: "والمعنى، أوحي إليّ هذا القرآن لأنذر به المخاطبين وهم أهل مكة، وأنذر كل من بلغه القرآن من العرب والعجم إلى يوم القيامة"(٧٤).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من الأنبياء نبيّ إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة"(٧٥).

والقرآن الكريم لم يصادم ولن يصادم الحقائق العلمية، وهذه حقيقة لا جدال فيها وذلك ما قرّرناه سابقاً أن القرآن الكريم معجزة أبدية فلو صادم الحقائق لبطل إعجازه، وهذا محال.

ولذلك نقول: إن العلم لا يتعارض مع القرآن إلا إذا ضل العلم طريقه أو أخطأ المفسر في فهم الآية الكونية لعدم معرفته العلمية.

ثانياً: العوامل التي لها تعلق بعوامل القرآن:

ما سبق ذكره هو العوامل الخاصة بالقرآن، أما العوامل التي لها تعلق بعوامل القرآن الكريم فهي كما يلي:

الأول: اعتبار الإعجاز العلمي ـ عند أهله ودعاته ـ أبرز وجوه الإعجاز لأهل هذا الزمان وذلك لعدة أسباب.

١- التقدم العلمي وانبهار العالم به، وإعلان البشرية قبولها للعلم طريقاً لمعرفة الحق.

٢- ضعف المستوى البياني والبلاغي للعرب المعاصرين الآن بحيث لا يقدرون على تذوق الإعجاز البياني وفهمه والوقوف على مظاهره في القرآن.

٣- عدم فهم الآخرين من غير العرب ـ لغة القرآن الكريم ـ ومن ثم عدم فهمهم للإعجاز البياني.

الثاني: تكاثر وتضافر عوامل عديدة صرفت جمهور المتعلمين من المسلمين عن دراسة القرآن الكريم: وهذه العوامل كثيرة جداً أهمها:ـ

١- ما تسرب إلى أذهان بعض المسلمين "المثقفين بالعلوم الحديثة" من عقيدة الإفرنج بأن الكتب المنزّلة جميعاً لا تحوي علماً دقيقاً أو بعبارة أخرى أن العلم والدين ضدان لا يجتمعان.

٧٣- سورة الأنعام، الآية: ١٩.

٧٤- ابن جزي، **التسهيل لعلوم التنزيل**، ج ٢، ص ٥.

٧٥- **صحيح البخاري** في كتاب الاعتصام بالسنة، الباب الأول، دار المعارف، الطبعة الثانية، حديث: ٧٢٧٤.

٢- عدم الاهتمام بأمر التثقيف والتهذيب الديني بجانب التثقيف العلمي في المدارس والمعاهد والجامعات ... إلخ.

٣- ما يراه الناس من مخالفة كثير من القوانين والنظم الاجتماعية لصريح التشريعات الإسلامية بحجة السير مع عجلة الزمان وعدم التخلف عن ركب المدنية الحديثة(٧٦).

ثالثاً: العوامل الخارجة عن ذات القرآن والتي اعتبرناها أهدافاً ومرامي للتفسير العلمي.

تلك العوامل التي ذكرناها سابقاً قسمان: عوامل خاصة بالقرآن الكريم وعوامل لها تعلق كبير بعوامل القرآن، وأما هذه العوامل فخارجة نوعا ما عن ذات القرآن ولكنها لا تخرج أبداً عن كونها أهدافاً ومرامي للتفسير العلمي وهي:

١- إدراك وجوه جديدة للإعجاز في القرآن من ناحية إثبات التوافق بين الحقائق النهائية القاطعة وبين ما يثبت من الحقائق العلمية التي لا يقبل ثبوتها أيّ نوع من الشك.

٢- تجديد بنية الرسالة الإسلامية في عصر الكشوف العلمية، وذلك باستمالة غير المسلمين إلى الدين الإسلامي من هذا الطريق العلمي الذي يخضعون له دون سواه(٧٧).

٣- دعوة المسلمين لزيادة إيمانهم من باب الإعجاز العلمي للقرآن.

٤- دفع مزاعم القائلين بأن هناك عداوة بين العلم والدين.

٥- تذكير الناس ببدائع الصنع وامتلاء النفس بعظمة الله وقدرته حينما يقف الإنسان في تفسير كلام الله عزّوجل على خواص الأشياء ودقائق المخلوقات حسبما تصورها علوم الكون.

ضوابطه:

إن التفسير العلمي لا يخرج عن مفهوم التفسير بالاجتهاد لشرح القرآن الكريم وبيان معناه والإفصاح عما يقتضيه نصه أو إشارته أو فحواه فإن التفسير العلمي لا يعتبر مقبولاً ما لم تراع فيه القواعد الآتية وهي قسمان:

١- قواعد للتفسير بالرأي بشكل عام.

٢- قواعد للتفسير العلمي بشكل خاص.

٧٦- الأستاذ حنفي أحمد، **التفسير العلمي للآيات الكونية**، دار المعارف، الطبعة الثانية، ص ٧-٩.

٧٧- انظر: الشيخ عبد المجيد الزنداني، **المعجزة العلمية في القرآن والسنة**، ص ٣٢.

فأما قواعد التفسير بالرأي فهي:

١- معرفة اللغة العربية وقواعدها (النحو والصرف والاشتقاق).

٢- معرفة علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع).

٣- معرفة أصول الفقه.

٤- الاهتمام بأسباب النزول.

٥- البدء بما يتعلق بالألفاظ المفردة من اللغة والصرف والاشتقاق مع ملاحظة المعاني التي كانت مستعملة زمن النزول.

٦- تقديم المعنى الحقيقي على المعنى المجازي بحيث لا يصار إلى المجاز إلا إذا تعذرت الحقيقة.

قال الإمام الغزالي رحمه الله: "إذا دار اللفظ بين الحقيقة والمجاز فاللفظ للحقيقة إلى أن يدل الدليل على أنه أراد المجاز"(٧٨).

٧- يجب مطابقة التفسير للمفسر من غير زيادة ولا نقص ومراعاة التأليف بين المعاني والغرض الذي سيق له الكلام.

٨- يجب مراعاة التناسب بين السابق واللاحق بين فقرات الآية الواحدة وبين الآيات بعضها بعضا.

٩- يجب بيان المعنى المراد والأحكام المستنبطة من القرآن في حدود قوانين اللغة والشريعة والعلوم الكونية.

١٠- يجب مطابقة التفسير لما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم في هديه وسيرته، لأنه صلى الله عليه وسلم هو الشارح المعصوم للقرآن الكريم بسنّته الجامعة لأقواله وأفعاله وشمائله وتقريراته(٧٩).

١١- يجب الابتعاد عن تفسير القرآن الكريم بمجرد الرأي.

هذه هي أهم شروط التفسير بالرأي بشكل عام، وأما الآن فمع شروط التفسير العلمي بشكل خاص وهي:

١- أن يجمع المفسر إلى الآية التي يتناول تفسيرها جميع الآيات التي وردت متعلقة بموضوعها، لأن جمع الآيات يعين على التفسير الصحيح والوصول إلى الحقيقة.

٧٨- الإمام الغزالي، **المستصفى في علم الأصول**، مطبوع مع كتاب **فواتح الرحموت**، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ج ١، ص ٣٥٩.

٧٩- الزرقاني، **مناهل العرفان**، ج ١، ص ٥٢٨.

٢- أن يجمع إلى الآية ما يتعلق بموضوعها من الأحاديث الصحيحة لأنها قد تقيد مطلقها أو تبين مجملها أو تحدد معنى اللفظ بمعنى جديد استحدثه الإسلام، ومثل هذا إنما يعرف من صاحب الشرع. قال الدكتور الزفزاف: "يجب ألا نخوض في الآية قبل أن نجمع إليها من الأحاديث أو الآيات ما يتعلق بموضوعها حتى تتحقق الوحدة التي على ضوئها ينتظم الفهم ويتبين الحكم"(٨٠).

٣- معرفة الحقيقة الثابتة بأن القرآن الكريم كتاب هداية وإعجاز وأنه لم ينزل ليكون كتابا في علم من العلوم كالطب أو الفلك أو غير ذلك، وأنه أسمى من ذلك و أكبر، غير أنه يتضمن الكثير من حقائق ومعارف هذه العلوم التي تذهل العلماء والمتخصصين ليثبت لهم صدقه وإعجازه ويعرفوا أنه الكتاب الحق الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾(٨١).

ولأجل هذه القاعدة المتينة فقد نبّه العلماء في العصر الحديث إلى أمرين مهمين: الأول: أنه لا ينبغي من المسلمين التسرع في طلب الموافقة بين العلوم والقرآن، بل الواجب أن ندرس ما في القرآن الكريم على أنه حقائق ثابتة فما وافقه من العلوم قبلناه. والثاني: أن لا يفسر القرآن إلا باليقين الثابت من العلم لا بالنظريات والفرضيات لأن الظنيات عرضة للتصحيح والتعديل(٨٢).

٤- أن لا يفسر القرآن الكريم إلا بالحقائق العلمية والابتعاد عن إقحام النظريات والاحتمالات العلمية في تفسير آياته، والفرق بين الحقيقة العلمية والنظرية العلمية: أن الحقيقة العلمية: هي أمر متعارف على وقوعه وتم التوصل إليها عن التجربة العلمية والملاحظة. والنظرية العلمية: توضيح لحالة معينة غالباً ما تكون قابلة للنقاش بمقارنتها باقتراحات ثانية، لأنها مجرد افتراض أو تخمين أو ظن(٨٣).

٨٠- الشيخ محمد الزفزاف، **التعريف بالقرآن والحديث**، ص ١٩١.

٨١- سورة فصلت، الآية: ٤٢.

٨٢- انظر: الشيخ أبو زهرة، **المعجزة الكبرى** (القرآن)، دار الفكر، ص ٥٢٣.

٨٣- انظر: عبد القهار، **بحث التفسير العلمي للقرآن معالمه وضوابطه**، ص ٢١٥، وصلاح عبد الفتاح الخالدي، **البيان في إعجاز القرآن**، ص ٢٦٤- ٢٦٦.

٥- استنباط القضايا العلمية المقررة إما من صريح النص الكريم وإما من إشارات واضحة فيه.

٦- معرفة التعارض بين التفسير العلمي الحديث والتفسير النقلي القديم والتعارض بينهما، معناه التقابل والتنافي بحيث إذا دل أحدهما على أمر مثلاً، دل الآخر على نفيه حتى لا يمكن الجمع بينهما بحال من الأحوال، هذا وإن الصور العقلية التي يحصل فيها التعارض بين التفسير العلمي والتفسير النقلي هي:

أ- أن يكون النقلي قطعيا والعلمي قطعيا كذلك.

ب- أن يكون أحدهما ظنياً والآخر ظنيا كذلك.

ج- أن يكون أحدهما قطعيا والآخر ظنياً كذلك.

أما الصورة الأولى: ففرضية، لأنه لا يعقل تعارض بين قطعي وقطعي، ومن المحال أن يتناقض الشرع مع العلم، لأن الشرع دين الله عزوجل والكون وما فيه من خلق الله تبارك وتعالى.

وأما الصورة الثانية: فإن أمكن الجمع بينهما وجب حمل النظم الكريم عليهما، وإن تعذر الجمع قدم التفسير المنقول عن النبي صلى الله عليه وسلم إن ثبت من طريق صحيح، وكذلك يقدم ما صح عن الصحابة، لأن ما يصح نسبته إلى الصحابي في التفسير فالنفس إليه أميل، لاحتمال سماعه من المصطفى صلى الله عليه وسلم ولما امتازوا به من الفهم الصحيح والعمل الصالح.

وأما الصورة الثالثة: فالقطعي منهما مقدم على الظني إذا تعذر الجمع ولم يمكن التوفيق أخذاً بالأرجح وعملاً بالأقوى(٨٤). هذه هي بعض الشروط التي ينبغي أن يلتزم بها من أراد تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم تفسيراً علمياً.

وفي الأخير نقول: أن الاتجاه العلمي في التفسير يعتبر من أهم الاتجاهات التفسيريه للقرآن الكريم في العصر الحديث، ومعنى التفسير العلمي للقرآن الكريم: اجتهاد المفسر في كشف الصلة بين آيات القرآن الكريم المتعلقة بالكون وما فيه ومكتشفات العلم الحديث على وجه يظهر به إعجاز القرآن الكريم ليدل على مصدره الإلهي وصلاحيته، لكل زمان ومكان ولا يجوز منعه إذا توفرت فيمن يقوم به شروط التفسير الصحيح وذلك لأن التفسير العلمي الصحيح لا يضرّ بالقرآن الكريم ولا بأيّ شيء من نواحيه، وأن النقص إذا كان يعتري بعض الدراسات في مجال التفسير أو الإعجاز العلمي فإنه لا يصح

٨٤- الشيخ عبد العظيم الزرقاني، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، ج ١، ص ٥٣٢.

أن يكون ذلك حكما على جميعها. وهذا هو الرأي المعتدل في التفسير العلمي، وأما إذا خرج المفسر بالقرآن الكريم عن قواعد اللغة العربية ولم يتقيد بالنحو والصرف والاشتقاق وغير ذلك فمرفوض، وهكذا مرفوض إذا خالف ما دل عليه القرآن الكريم في مكان آخر، أو ما دلت عليه السنة النبوية الصحيحة. ومرفوض كذلك إذا اعتمد على النظريات العلمية التي لم تثبت ولم تستقر ولم تصل إلى درجة الحقيقة العلمية.

****